توطئة

شـاب وسيـم، أشقر الشعر، مفعم بالحيويـة والنشاط، متوجـه إلى ردهة فندق ريتز كارلتـون في مدينة تايسون كورنر، بولاية فيرجينيا. إنـه إريك برنس، الذي بلغ من عمره ستـة وثلاثين عاماً، وهو جندي سابـق في قوات الصاعقة البحريـة الأمريكية -سيل-[1]، والمالـك الوحيد لشركة بلاك ووتر يو أس إيه، ووريث ثروة أسرة برنس، وربما يكون أقوى المناصريـن المثيرين للجدل لخصخصة الجهـاز الأمني. ومع أن المركـز الرئيس لشركة بـلاك ووتـر يقع في منشأة للتدريـب مقامة على أرض شاسعة تبلـغ مساحتها سبعة آلاف أكـر[2] في مدينة مويوك، بولاية نورث كارولينـا، إلا أن برنس وجد أن من الأنسب أن يتخذ مكتباً له في مدينة تايسون كورنر؛ لكي يبقى على مقربة من البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

تظهر وسائل الإعلام إريك بصورة الشخص المبهم المخاتل المخادع. وهو ليس كذلك، ولكنـه اكتسب هذه السمعة؛ لأنه كان يرفض دوماً طلبات وسائل الإعلام إجراء مقابلات معـه. ونظـراً لوجود عدد من الدعـاوى القضائية المرفوعة على بـلاك ووتر من قبل أسر عاملين سابقين في الشركة، تبرز حاجة قانونية إلى التزام السكوت والابتعاد عن مصائد الإعلام. ومع ذلك، وافق إريك على إجراء مقابلة معي. ولا أملك سوى التكهن بأن مكوثي شهـراً كامـلاً برفقة أعضاء فريق بلاك ووتر الأمني في دورياتهم على طريق مطار بغداد الدولي المهلـك، إضافة إلى حضوري عدداً من المناسبات الاجتماعية التي رأيته فيها عن قرب، جعلاه يقتنع برغبتي المخلصة في فهم عالمه الخاص.

1- كلمة سيل وبالإنجليزية (SEAL) هي اختصار لعبارة «بحراً، جواً، أرضاً». (sea air land) وهي قوات أمريكية خاصة متخصصة في حرب العصابات وعمليات الكوماندوز ومقاومة العصيان. وقد ورد في الكتاب ذكر لوحدات أخرى في الجيش الأمريكي من هذا القبيل، منها قوات المظليين البحرية وسنطلق عليها اسمها الشائع وهو المارينز؛ هناك قوات الجوالة وسيطلع عليها في هذا الكتاب قوات الرينجرز؛ بالإضافة إلى القوات الخاصة أو البوريات الخضر.

2- أي ما يساوي 28 كلم مربع تقريباً، أو 28 ألف دونم.

لقد أتيحت لي عبر عقود من الحلّ والترحال في المناطق التي مزقتها الحروب فرصة ممالحة عدد من الأثرياء الملاّك للجيوش الخاصة. غير أن إريك هو الوحيد من بينهم الذي قابلته في حجرة الجلوس الفارهة في فندق ريتز كارلتون. وقد خطر في بالي وأنا جالس تجاهه مراقباً سلوكه النشيط المتفائل، أنه لا أحد من الموجودين في ردهة الفندق يمكنه أن يخمن مهنة إريك الحقيقية. والمرة الوحيدة التي قاطع فيها ارتجاج هاتفه الخلوي، الذي لم يتوقف، كانت حين جاءته مكالمة من «الرئيس الكبير»، أي زوجه.

ولدى إريك كثير من الأسباب التي تدفعه إلى التفاؤل والحبور، ففي السنوات الخمس الماضية، نمت شركته حديثة التأسيس من مجرد شركة «لتصنيع أهداف للرماية» إلى أنجح شركة رائدة في تقديم التدريب الأمني والحرس المسلح. وامتد نشاط عمليات بلاك ووتر من مدينة نيو أورلينز في الولايات المتحدة إلى أفغانستان، ومن أذربيجان إلى العراق. ومع بداية عام 2006، كان لدى برنس ثماني مئة عنصر يعملون في العراق، ومئات آخرون يقودون الطائرات، ويوفرون الحماية الشخصية، وحراسة المنشآت، وتدريب الجنود حول العالم. ويبدي إريك تحمساً شديداً لأكاديمية بلاك ووتر الجديدة، التي ستقوم بتعبئة وتجنيد، ونشر جيش مؤلف من ألف شخص، وهي «الخطوة الثانية» التي يروج لها للارتقاء بشركته إلى مستوى أعلى. ويخضع المنتسبون إلى هذه الأكاديمية لبرنامج شاق منهك من التدريب واختبار اللياقة، ويعفى الذين يخفقون في اجتيازه من الرسوم والمصاريف؛ أما الذين يجتازونه، فيعوضون عما دفعوه من رسوم بضمان توظيفهم في بلاك ووتر. وحتى خريف عام 2006، أشارت الأرقام إلى أن بلاك ووتر عازمة على تدريب خمسة وثلاثين ألف رجل في السنة القادمة، وقامت بنشر ما يربو على ألف وثماني مئة عنصر في سبع دول. ويميل برنس إلى تشبيه علاقة بلاك ووتر بالمؤسسة العسكرية التقليدية بعلاقة شركة فدإكس بمصلحة البريد الأمريكي – من حيث إنها حل ناجع فاعل مخصخص للبيروقراطية الحكومية المتصلبة والمبذرة.

وعقب الرواج الكبير الذي طرأ على خدمات شركات الأمن الخاصة في حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، تمكن برنس من تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من فطنته المهنية. وحين يتحدث عن قدوته ومثاله الأعلى في العمل، فإنه لا يستشهد بجندي شهير، أو

رائد من رواد المرتزقة، أو أحد القراصنة؛ بل برجل أعمال هو ألفريد سلون، الرجل الذي بنى شركة جنرال موترز لتصبح واحدة من كبريات الشركات وأكثرها ربحاً في العالم. وقد بدأت إمبراطورية المال التي تعود لأسرة برنس بداية متواضعة بالشركة التي أسسها أبوه، وهي الشركة التي اخترعت المرآة المضاءة التي توضع على واقية الشمس المستخدمة في السيارات أمام مقعد السائق والمقعد المجاور له. ثم نمت الشركة مع التوسع في نشاطها على يد والده.

ومن الواضح أن إريك هو نتاج التربية التي تلقاها في تلك الأسرة: «كان عمل أسرتي متخصصاً بتزويد لوازم السيارات، وهو أكثر الأعمال التنافسية المسعورة في العالم». وكان جلّ تركيز أبي منصباً على النوعية، والكم، وإرضاء العملاء. وكانت هذه الأمور مدار حديث الأسرة حول مائدة العشاء. وبالتركيز على هذه القيم، يعتقد إريك أن بإمكانه أن يقدم جيشاً أخف حملاً، وأسرع حركة، وأذكى أداءً، دون تطلب أعباء دعم البنية التحتية التي تتطلبها الجيوش التقليدية.

ونتيجة للجهود التي كانت تدفع باتجاه خصخصة الخدمات المساندة للجيش التي بدأت في تسعينيات القرن الماضي، أدركت حكومة الولايات المتحدة أن توظيف القطاع الخاص لحل المشكلات، يمكن أن يكون أقل كلفة من وضع حلول تعتمد على بيروقراطيات ضخمة. وكما حدث فعلاً، فإن إريك كان يجد دوماً داخل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وفي وزارة الخارجية، والبنتاغون جمهوراً متحمساً مصغياً لعروضه القائمة على الحلول العملية وعلى المصاريف الثابتة. وفي الوقت نفسه، يدرك إريك عدم تحمس الرأي العام لدعم ما يمكن عدّه جيشاً من «المرتزقة» لحل مشكلات العالم. ويعي برنس الذي لا يتردد في إظهار نزعته الحربية، وقيمه الأسرية المحافظة، وتبعيته العمياء للحزب الجمهوري، أن أفكاره لا تحظى بتأييد كل الناس، ويعترف كذلك أنه حين يخاطب زيداً وعمراً من الناس، فإن أمامه مهمة ليست سهلة في إقناعهم.

ويوجد لدى إريك حجة جاهزة للتصدي لوصمة «المرتزقة» والتصورات السلبية التي غالباً ما ترافقها. وقد بدأ حديثه بتذكيري أن الثورة الأمريكية ما كان لها لتنجح لولا قوات الميليشيات الخاصة التي أنشأها ملاّك المزارع الأثرياء. وينظر إريك إلى دور بلاك ووتر

في الشؤون الدولية بأنه شبيه بالدور الذي أداه كل من: بارون فان ستيوبن[1]، وكاسياسكو[2]، وروتشامبو[3]، ولافاييت[4]، من حيث كونهم جنودَ مغانمَ ساعدوا الأمريكيين العاديين على محاربة الجيش البريطاني الذي كان على درجة عالية من التسليح والتدريب. ويهوى كذلك الإشارة إلى أن استعانة الجيش الأمريكي بـ «المتعاقدين» يعود إلى عهد الحرب العالمية الثانية، حين استخدم الجيش الأمريكي «النمور الطائرة» – وهي مجموعة من الأمريكيين جرى تمويلهم سراً، وكانوا يقودون طائراتهم تحت شعار شركة كلير لي تشينولتز المعروفة اختصاراً بشركة كامكو. وأسقط النمور عدداً من الطائرات اليابانية وأصابوا أهدافاً أخرى في البنية التحتية اليابانية، وكانوا يتقاضون أجراً يعادل ثلاثة أضعاف ما يتلقاه الطيار العادي، إضافة إلى مكافأة مجزية عن كل طائرة يسقطونها.

هذه الأمثلة التي ضربها برنس تتجاوز الوظائف التي تؤديها الشركات الأمنية الخاصة المتعاقدة مع البنتاغون، التي تعمل في العراق أو أفغانستان، ولكنها تفصح عن تطلعات برنس. فالمعنى التقليدي «لقوات الأمن» هو رجال مدربون يحرسون الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء، لكن برنس يريد أن يقدم المزيد. وبموجب خطوته التوسعية الثانية، يسعى إريك إلى أن يوسع من نشاط الأمم المتحدة في مجال ترتيبات حفظ السلام لتشمل قواته العسكرية الخاصة. وبحسب ما يقوله برنس، فإن الأمم المتحدة هي منظمة تنفق

1- ضابط ألماني، ولد في بروسية عام 1730، وتوفي في نيويورك في الولايات المتحدة عام 1794 اسمه بالمولد فريدريك ويلهم لودلوف غيرهارد أوغسطين فون ستيوبن، وربما حصل على لقب بارون بعد مشاركته في حرب السنوات السبع بين إنجلترة وبروسيا من جهة ضد فرنسة والنمسا (1763-1756). قدم إلى الولايات المتحدة عام 1777، بعد أن تقاعد من الخدمة العسكرية في الجيش البروسي ليشارك في حرب الاستقلال الأمريكية ضد الإنجليز، وعمل على تحويل الجيش الثوري إلى قوات نظامية. (بتصرف عن الموسوعة البريطانية 2008، شيكاغو).

2- جنرال بولندي قاتل إلى جانب الثوار الأمريكيين ضد الإنجليز في حرب الاستقلال، وعاد إلى وطنه بولندة ليشارك في حرب استقلال بولندة عن روسية.

3- جنرال فرنسي كان يتولى قيادة وحدة عسكرية مكونة من ستة آلاف جندي فرنسي متمركزة في أمريكة الشمالية شاركت في القتال إلى جانب الثوار الأمريكيين في حرب الاستقلال عن التاج البريطاني.

4- جندي ورجل سياسة فرنسي الأصل من الطبقة الأرستقراطية، كان ضمن الطاقم المساعد لجورج واشنطن في الثورة الأمريكية، وقاتل إلى جانب الثورة في حرب الاستقلال الأمريكية.

70% مـن ميزانيتهـا البالغة 10 مليـارات دولار على مَهمات حفـظ السلام، وهي مَهمة تضاعفـت إلى أكثر مـن ضعفين في السنـوات العشر الأخيرة. وبحسب رأيـه، فإن ذراع حفـظ السلام التابعة لـلأمم المتحدة هي ذراع مكسورة في جسم ينخر فيه الفساد. إنها «خدعـة تستخـدم لتحويل الأموال إلى جيوش العالم الثالث التي تفتقـر إلى الانضباط والتدريب والتجهيز».

قـام برنـس بتوظيف السفير كوفر بلاك في شركته، وهـو موظف عمل في السابق لدى وزارة الخارجيـة ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكيـة، بغية الترويج للجيش الخاص التابـع لبلاك ووتـر في اللقـاءات والاجتماعـات التي يعقدهـا السفـراء والدبلوماسيون الأجانب. وأعلن السفير بلاك في شهر آذار/ مارس من عام 2006، أمام جمهور الحضور في معرض عمليات القوات الخاصة الذي عقد في العاصمة الأردنية عمان، أن باستطاعة شركة بلاك ووتر أن تنشر قوة بحجم لواء بسرعة عالية وكلفة زهيدة نسبياً. وقال بلاك: «إن القضية هي من هو الطرف الذي سيسمح لنا باللعب ضمن فريقه»، ثم أردف موضحاً تلك العبارة بقوله: «إن بإمكاننا أن نحصل على موافقة الحكومة الأمريكية على كل شيء نقدمه لأصدقائنا وراء البحار».

يملـك إريك برنس المقدرة على نشـر لواء مسلح مؤلف من جنود مختصين تابعين له، أو كمـا يحلـو له أن يسميه «النجـدة ذات الأنياب»[1]، وهو جيش مؤلـف من ألف وسبع مئة رجـل مدربين ومزوديـن بقوة جوية من طائرات مروحية وطائـرات نقل. ومن يملك المال بإمكانـه استئجـار «دعم ناري» كامل بما في ذلك الطائرات المـزودة بالمدفعية، وطائرات التجسـس، وطائـرات الاستطـلاع الجـوي، والطائـرات المروحيـة المسلحـة، والعربـات المصفحـة، والطائـرات التي تعمل دون طيار وتوجه عن بعد، وطائـرات الهجوم السريعة المـزودة بقذائف الهجوم المباشر الموجهـة، أو بالقنابل العنقودية. وسيكون هناك وحدات هندسية وإنشائية، وطبيّة، وتوريد ومؤن، إضافة إلى وحدات قتالية، موزعة بمعدل ضابط غربي متدرب تدريباً مهنياً لكل عشرة من جنود المشاة المستخدمين من دول العالم الثالث

1- فقدت التسميه مع الترجمة سجعها الإنجليزي الذي نجده في الشعارات والأمثال، وهو سبب شيوعها، وعبارة المؤلف الأصلية هي (Relief with Teeth).

العاملـين في الشركـة. ويشترط إريك أن يكـون عملاؤه من حلفاء أمريكـة، وأن تسترجع بلاك ووتر معداتها ذات التقنية العالية إلى مقرها الرئيس بعد انقضاء العقد. وفي الوقت الذي يطوّر فيه إريك هذه القدرات، فإنه لا يناقش إن كان هناك زبائن لخدماته الجديدة أم لا.

وفي معرض وصفه للنموذج الذي استخدمه في تنظيم قواته الخاصة، يستشهد إريك بهيـكل تقليدي لقيادة عمليات المرتزقة كالـذي استخدمته شركة النتائج التنفيذية[1] التي كانـت تعمـل في جمهورية جنـوب إفريقية. ويكثر إريـك من الإطراء علـى شركة النتائج التنفيذيـة على تدخلهـا الفاعل الذي وضع حـداً للنزاع الدموي الذي وقـع في سيراليون وأنغـولا. ولكنه لا يذكر شيئاً عـن قيام البرلمان في جنوب إفريقية بحظر تلك الشركة، ولا عـن وصمة العـار التي لحقت بها من جراء قيـام أصحابها وعملائهـا باستخدامها أداة للاستيلاء على الموارد الطبيعية التي تدر أرباحاً طائلة.

وثمـة فـرق كبير بـين المضامين الأخلاقيـة والقانونيـة لنشاطات شركـة النتائج التنفيذيـة حـين نقارنهـا بتطلعات بلاك ووتـر، مـع أن المنشأتين تقعـان في النطاق العسكري الخاص نفسه.

ولتوضيـح هذه الفكرة بعبارة مبسطة أقول: إن المرتزقة هم جنود يعرضون خدماتهم مقابـل أجر، أمـا الجيش الخاص أو المتعاقدون «الأمنيّـون» فهم حراس أمن يعرضون خدماتهـم مقابـل أجـر. والمرتزقـة يتقاضون أجرهـم للإطاحـة برؤسـاء دول وقواعد عسكريـة، وسفن حربية معرضـة للهجوم على يد قراصنة، وحقـول نفط، ومناجم ماس ومعـادن، وبرامـج تابعة لمنظمات غير حكوميـة، إضافة إلى أعمـال الإنقاذ والحماية في مدينـة نيو أورلينز الأمريكية عقـب الإعصار الذي عصف بها. ومع ذلك، فإن أكبر سوق للخدمـات التي تقدمها الشركات الأمنية (والبوتقة التـي صهرت الأحداث الجسام التي أوجـدت تلـك الصناعة) بلا منازع هي العراق في عهد ما بعـد الاجتياح الأمريكي؛ حيث كان الاستمـرار في محاولات إعادة البناء في الوقت الذي تتطاير فيه العيارات النارية من

1- Executive Outcomes.

كل حـدب وصوب تعتمد على مستوى الأمن الذي يمكـن المحافظة عليه. وقدم المتعاقدون الأمنيّـون الحماية لبول بريمر، وجون نيغروبونتي، وسلطـة التحالف المؤقتة، ومشروعات إعـادة الإعمار الحكومية منها والتجارية، ولأنابيب النفط. وأصبح مألوفاً مشهد الحرس التابعين للشـركات الأمنية الخاصة الذين يقومون بحماية قوافـل الدبلوماسيين، ورجال الأعمـال، والصحافيين (ومستلزماتهـم) في تحركاتها من مكان إلى آخر. وكما تبين من الأحـداث أن رحلة سريعة لجلب بعض معـدات الطهو يمكن أن تسفر عن اشتباك مسلح، كمـا حدث حين قتل أربعـة عناصر من المتعاقدين الأمنيين العاملين من شركة بلاك ووتر ومُثّـل بجثثهـم أمام المـلأ، وعُلّقوا فوق جسـر في الفلوجة في مارس من عـام 2004. وقد دفـع ذلـك الحدث وسائل الإعـلام إلى تسليط الضوء على الدور الـذي يؤديه المتعاقدون العسكريـون التابعـون للقطاع الخاص، وهو ما نشأ عنه جدل حول دور المدنيين في مناطق الحرب، وحول الفرق بين المتعاقدين الأمنيين وبين المرتزقة.

المرتزقـة يقاتلون، في حين يقـدم المتعاقدون الأمنيّون بالحمايـة، ولا يطلقون النار إلا إذا تعرضـوا هـم أنفسهم أو مـن يحمونه إلى الهجوم، وذلـك إلى أن ينسحبوا إلى مكان آمـن. هذا هو -على الأقل- الخط الفاصل الذي يفترض وجوده بين المرتزقة والمتعاقدين الأمنيين. بيد أن أصحاب المشروعات التجارية التي تعمل في هذا القطاع مثل إريك برنس يدفعـون باتجـاه فتح أسواق جديـدة لمنتجاتهم الأمنيـة، وسيطرأ نتيجـة لذلك -وبحكم المؤكـد- مزيد من الغموض على هذا الخط الفاصـل المفترض الذي يعاني في الأصل من عدم الوضوح. بل إن بعض النقاد يجادلون بأن هذا الخط الفاصل غير موجود أصلاً.

لقـد أمضيت أكثر شبابي أتتبع نشاطـات المرتزقة والجنود الذين يعرضون خدماتهم مقابل أجر. وفي عام 1975، قمت بلصق ثلاث خرائط طرق للقارة الإفريقية على الحائط في شقتي السكنية لتتبع تقدم العقيد كالان وعصبته المنحوسة من المرتزقة في أنغولا. وفي أواخر تسعينيات القرن الماضي، كان لي أول لقاء مع شخص، كان من المرتزقة ثم أصبح متعاقـداً أمنيـاً، هو كوبوس كلاسينس، الذي كان يعمل مع شركـة النتائج التنفيذية. وما تعلمتـه من كوبوس هو أن الفرق بين المرتزقـة والمتعهد الأمني يعتمد على الشخص نفسه لا علـى الوظيفة. ويكمن الرادع الأخلاقي الأسمى عنـد هؤلاء الأشخاص في نظرتهم هم

إلى أنفسهم، وليس في نظرة العالم إليهم. وحين التقيت بأولَ متعاقد أمنيٍّ، وقد كان يعمل ضمن مَهمة سرية تمولها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لتعقب ابن لادن في المناطق الحدودية لأفغانستان، أدركت أننا قد نكون على أعتاب تحوّل مفاجئ في أساليب الحرب الحديثة، أو ربما عودة إلى العهد البائد لأعمال القرصنة المرخصة من الدول، ومتعقبي الأشخاص المطلوبين للعدالة، للحصول على المكافأة المالية لمن يأتي بهم.

واستجابة للرغبة الملحة التي وجدتها في نفسي لتفهم هذه الظاهرة، عقدت العزم على شد الرحال وخوض غمار هذا العالم المغلق، من أحطّ مراتبه إلى أعلى قممه وأكثرها احتراماً. وفي الصفحات الآتية وصف لهذه الرحلة. وليس المقصد من هذا الكتاب أن يكون شاملاً لهذا الموضوع من كل أطرافه، فهو ليس مرجعاً أكاديمياً يعالج بالتفصيل الجوانب كلها المتعلقة بالقضايا التي يثيرها هذا التطور الجديد في الحرب. فعلى سبيل المثال، لم أتعرض لقضية التلاعب الذي يحدث في عملية طرح عطاءات الشركات الأمنية؛ لأن وسائل الإعلام قامت بعمل وافٍ لتغطية مثل هذه المخالفات. ومع ذلك، فقد تعلمت الكثير في رحلاتي -عن الرجال الذين اختاروا هذه المهنة، وعن العمل الذي عليهم أداؤه، وعن الأحداث التي كانت نقاط تحوّل في تاريخهم، والمشكلات الكبرى التي أفرزها نمو هذه الصناعة، والتنبؤات التي يمكن أن يقدمها كل ذلك عن المستقبل- وقد رأيت أن من الأهمية بمكان أن أضعَ هذه التجربة والخبرةَ التي اكتسبتها في متناول القارئ المهتم. ولست أحاول، في الصفحات الآتية، أن أقولَ للقارئ: كيف يفكر؛ بل أدعوه إلى مرافقتي في هذه الرحلة ليشاهدَ منظومة عريضة من الشخصيات ووقائع الأحداث. ومقصدي الوحيد هو أن أرشد القارئ إلى فهم جديد حول إمكان استغلال هؤلاء الأفراد وتلك الشركات في المستقبل بوصفها قوة للخير أو للشر.

المقدمة

السير بشدّة

«يوم جديد، ومَهمة جديدة»

- افتتاحية ملخص التعليمات المقدمة لأفراد فريق المبة التابع لشركة بلاك ووتر

كان الذباب المنتشر في المطار مثيراً للسخط. صَرَخَ غرِيز بصوت مرتفع «تباً! اللعنة!»، وكان يزداد حنقاً في كل مرة يخفق فيها في الإمساك بواحدة منه. وثمة سبب آخر لسخط غريز وهو أنه قبل مدة من الزمن حلق رأسه وحتى الآن لم تظهر أي بادرة لعودة نمو شعره. وكان زميله مياغي يطلب منه أن يُهَدِّئ من رَوعه. اكتسب غريز هذا اللقب[1] نسبة إلى الدب الأشيب الذي يعيش في منطقة شمال غربي الساحل المحاذي للمحيط الهادئ من القارة الأمريكية التي ينحدر منها غريز. ولقد خدم غريز في السابق في قوات المارينز، ولكنه يفتقر إلى مهارة اصطياد الذباب الذي يحاول اقتحام فمه وأنفه. وفي خطوة غير عادية في التعبير عن تقديره للشركة التي يعمل فيها، قام غريز بدق وَشْم كبير خلف عضلة ساعده المفتولة يمثل شعار شركة بلاك ووتر - المكون من براثن دبٍ بارزة داخل دائرة تمثل هدفَ قنّاصة، ويحاكي هذا الشعار الدب الأسود الذي يجوب المنطقة الممتدة على مدى 24 كيلو متراً مربعاً في منطقة المستنقعات الموحشة العظمى في السهول الساحلية في جنوب شرق ولاية فيرجينيا وشمال شرقي كارولينا الشمالية. وكثيراً ما يظهر هذا الشعار في الأماكن التي يتوقع أن يُشاهَد فيها العَلَم الأمريكي على الرجال المسلحين والعربات المصفحة في العراق.

وصل فريق الحراسة الشخصية التابع لشركة بلاك ووتر المؤلف من اثني عشر شخصاً إلى مطار بغداد الدولي لمرافقة فوج جديد من زملائهم العاملين في الشركة

1- غريز هي اختصار لكلمة غرزلي التي تعني بالإنجليزية الأشيب.

قادم من عمّان ليحلّوا محل زملائهم في عملية تبديل روتينية. ومع اقتصار الرحلات الجويّة القادمة على اثنتين فقط، فإن المطارَ الضخمَ ذا التصميم المعماري الأوروبي الجديد تطغى عليه أجواء الهدوء المخيف لواجهة مسرح مهجور لتصوير الأفلام، فهو واحة معزولة خارج حدود واقع العنف في بغداد.

وانتظار قدوم الطائرة ينبئ عن شعور أشبهَ ما يكون باستراحة قصيرة جداً من الأمن بين رحلة الذهاب والإياب المحفوفة بالمخاطر الشديدة من المنطقة الخضراء إلى المطار، والعودة على طريق المطار الذي أصبح يشتهر باسم جديد هو «الدرب الآيرلندي»[1] أو «درب العبوات الناسفة». كان التوتر شديداً في هذا اليوم بالذات؛ إذ أعلن في الموجز الصباحي أنه وقع في غضون الثماني والأربعين ساعة الماضية ستةَ عشرَ هجوماً على طول الطريق الممتد أربعة أميال. ويسلك الفريق التابع لشركة بلاك ووتر الذي يعرف باسم فريق الممبة[2] هذا الطريق كل يوم ذهاباً وإياباً، يضطر فيها إلى السير بسرعة وشدة على الطريق تفادياً لنيران الرشاشات أو الألغام الأرضية التي تضعها المقاومة العراقية مستهدفة بها قوافلَ الجنود الأمريكيين.

ولا يخالط أعضاء فريق الممبة فرق الحراسة الأمنية الأخرى التي تتمركز في موقف السيارات القريب من المطار؛ إذ يُعدّ التساهل في التركيز من بوادر الشؤم، كما أنه ليس من اللائق التوددُ إلى الشركات الأمنية الأخرى. وقد جرت عادة فريق الممبة التابع لبلاك ووتر تحقير الشركات الأمنية الأخرى -تربل كانوبي، وإم في إم (M.V.M)، و يو إس آي إس (U.S.I.S)، ودينكورب- كما يفعل أعضاء فريق كرة القدم حين يسخرون من الفرق

1- اعتاد جنود الجيش الأمريكي المتمركزون خارج بلادهم أن يسموا المناطق والمعالم الجديدة التي يشاهدونها بأسماء تعكس أسماء معالم مشابهة في بلادهم أو بأسماء فرق رياضية مشهورة كما سيتبين في ثنايا هذا الكتاب. وتسمية الدرب الآيرلندي جاءت من اسم فريق كرة القدم الأمريكية في جامعة نوتردام الذي كان يطلق عليه فريق المقاتلين الآيرلنديين. كما أطلقوا على طرق أخرى في بغداد أسماء فرق رياضية أخرى مشهورة. (موسوعة ويكيبيديا).

2- جاءت هذه التسمية نسبة إلى عربات الممبة البيضاء المصفحة التي تصنع في جنوب إفريقية التي يستخدمها العاملون في بلاك ووتر في تنقلاتهم. وكلمة ممبة في الأصل تطلق على أفعى إفريقية ذات سم قاتل في اللغات الإفريقية المحلية.

المنافسة الأخرى. وكلهم يومئون برؤوسهم تعبيراً عن الاعتراف بوجود الطرف الآخر، وغالباً ما يجري ذلك بهمسة غير مسموعة من الشتيمة والتحقير، غير أن ذلك هو أبعد ما يمكن أن يصل إليه التخاطب بينهم.

يبقى تي بوي وحدَه بعيداً محتفظاً بمسافة بينه وبين الأشياء التي من حوله، وهي خطوة يطلق عليها هو «تحديد النطاق»، مركزاً على المخاطر التي تحيط برحلة العودة إلى المنطقة الخضراء. ويبدو أن تي بوي يتبنى أسلوباً يعكس النظرة العامة للموت: خوذة سوداء، وقميصاً أسود، وقناعاً أسودَ، ونظارات شمسية سوداء، إضافة إلى جمجمة كبيرة وعظمتين تحتها على شكل إشارة X مطبوعة على ظهر سترته الواقية من الرصاص، ورسماً مشابهاً آخر على خوذته الواقية من الرصاص من نوع كيفلر. وكل هذه التجهيزات تغطي وُشُومَ[1] الجمجمة الموجودة على جسمه. ويتقدم تي بوي المجموعة مسلحاً برشاش بي كي إم (P.K.M) وعليه أن يبقى متيقظاً؛ لأن المقاومة العراقية قد بدأت في توظيف تكتيك جديد يقوم على تجاوز القافلة ثم الإبطاء فجأة لضرب القافلة العسكرية من المقدمة. ويرفض أن يضع سلاحه إلا بعد العودة إلى مقر الفريق.

أما باز، وهو جندي سابق في القوات الخاصة النيوزلندية (كيوي ساس)، فقد توجه هو وغيكو إلى السوق الحرة في المطار لشراء بعض المشروبات الغازية، في حين جلس كل من 86[2] وبغدادي، وكريتر والبقية يتحدثون. ينحدر 86 ذو الشعر الأشقر المنفوش من ولاية ميسيسيبي، وهو جندي سابق في قوات المارينز، وله سواعد مفتولة محاطة بوشوم قبلية سوداء، ويحب لبس قبعة متسخة بالية ونظارات طيران شمسية كبيرة من طراز ري بان.

1- جمع وشْم، وهو ما يدق على الجلد من رسوم وصور وأشكال.

2- يستخدم هذا الرقم ملفوظاً بصيغة فعل ويتصرف بتصريف الأفعال للدلالة على معنيين هما الطرد والإبعاد، وكذلك رفض تقديم الخدمة. أما كيف أصبح هذا الرقم يحمل هذه الدلالة اللغوية، فأقرب التفسيرات ترده إلى عنوان مطعم وبار يدعى تشوملي، ويقع على 86 بدفورك ستريت، في مدينة غرينويتش فيليج في ولاية نيويورك. ومن البَدِهي أن هذا المطعم كان يرفض تقديم خدماته لفئة معينة من الناس هم السود، علماً بأن هذا الاستخدام دخل القاموس الإنجليزي عام 1959، وهي مدة كان التمييز العنصري في الولايات المتحدة ضد السود يمارس في العلن، ويرد بعضهم هذا الاستخدام إلى سجع هذه الكلمة مع كلمة نكس (nix) التي تعني الرفض، والتفسير الأول أرجح للاعتبارات التاريخية. والله أعلم.

ولقـد حصل على هذا اللقب 86 لأنـه طرد من المفرزة الأمنية التابعة لوزارة الخارجية بعد أن دققـوا في سجلـه وسحبوا منـه التصاريح الأمنية التي أعطيت لـه، وهذا اللقب هو نكتة قديمة، ونظراً إلى كونه الشخصَ الوحيدَ المنحدرَ من الوسط الأمريكي في الفريق، فإن 86 لا يعدم تهكم زملائه في الفريق من حين لآخر.

ويبقـى خـوان، ذو الأصل المكسيكـي، والشعر الداكـن، والابتسامـة العريضة التي لا تفـارق وجهه، وهو مـن مدينة إلباسو، يبقى على مقربة من العناصر التشيلية في الفريق، يتحدثون ويتبادلون النكات باللغة الإسبانية. وهؤلاء التشيليون هم جنود سابقون من عهد الطاغيـة بينوتشيه، التحقـوا ببلاك ووتر بوصفهم مواطني دولـة ثالثة عن طريق غروبو تاكتيكـو. ويتقاضى الواحد منهم 2.400 دولار في الشهر للقيـام بأعمال «ثابتة» – أغلبها حماية مقر بلاك ووتر في المنطقة الخضراء، ويجري أحياناً الاستعانة بالضباط السابقين المتميزين ممن هم في أواخر الثلاثين وبداية الأربعين من أعمارهم للقيام بدوريات الممبة حين يكون هناك نقص في عدد الرجال، أو حين يشعرون بالضجر.

أمـا توول، ذو الشعر الأحمر، الجندي السابـق في المارينز، الخبير بإصلاح السيارات والآلات، فيستغل أوقات الانتظار في تفحص سيارات الممبة للتيقن من خلوّها من الأعطال الفنيـة. وعربـات الممبة هي من صنـع جنوب إفريقيـة، مصممة لتحمّل انفجـار الألغام وتقـديم حمايـة من نـيران القناصـة – وتتفوق على العربـة التي تصنعهـا شركة جي إم سـي (G.M.C) مـن نوع سوبربان أو سيـارة بي إم دبليـو (B.M.W) المصفحة من الفئة السابعـة. أما مساوئها فأولها بطء حركتهـا، وثقل وزنها، وتبدو قافلتها وكأنها موكب من فيلـة سيرك بيضاء تمشي بخُطا متثاقلة وعلى ظهرها رجال يلبسون الخوذات الفولاذية، وتظهـر أسلحتهم مـن فتحاتها العلوية الخمس، ولكنها ليست بالسبّاحـات المتوارية عن الأنظار في بحر يعج بأسماك القرش.

يتـولى ميـاغـي، الذي حصل على هذا اللقب الذي يخاطب بـه عبر أجهزة اللاسلكي، لأنـه يشبـه بـات موريشا الـذي يمثل في أفـلام طفل الكراتيـه؛ ولحاجتـه إلى استخدام نظـارات ثخينة للقراءة، عند قيادة القافلـة إلى المقدمة. وهو شرطي سابق كان يعمل في القسـم الذي تكثر فيـه الجريمة من مدينة لوس أنجلوس، وهـو يتحدث بلهجة مكسيكية

هادئـة. ويلبس وشاحاً خمرياً أرسلته إليه زوجه لجلب الحظ، وهو قصير القامة، يختلط السـواد والبياض في لحيته، وتتدلى أسلحته وعتاده عن كتفه، وتبدو عليه ملامح الارتياح التي نلحظها عادة في العاملين في الشركات الأمنية الخاصة. وهذا الفريق بمجموعه يبدو وكأنـه مجموعة من الممثلين الذين يمثلون فيلماً زهيد الميزانية عن المرتزقة. يقول مياغي واصفـاً المظهر الذي يسعى المتعهـدون الأمنيّون إلى تحقيقه: أخـي، إننا نسميها سي دي آي - الفتيـات يعشقنها. وحين ندخل المطـار وننظر إلى أنفسنا عبر مرايا النوافذ، نهتف جميعاً قائلين: «هيه، يا رفاق، سي دي آي». وضحك أعضاء الفريق.

ويتابع مياغي قوله، «ونستخدم كذلك عبارة أنت حاذق رائع»

فيرد عليه غريز مؤشراً بإصبعه إشارة مبالغاً فيها، «لا، بل أنت الحاذق الرائع!»

ثـم يرد مياغي مجيباً: «لا لا، بـل أنت الحاذق الرائع!» وضحك الآخرون. فهم يعلمون أن مياغـي يحـاول استثـارة الشخص الجديد بهـذه الكليشيه التي تقـول: إن المتعاقدين الأمنيين هم من رعاة البقر المغرورين.

عاد غيكو، وهو شاب، مربوع الجسم، حليق الرأس، عمل في السابق في قوات المارينز، حامـلاً بيديـه شراباً وطعاماً غنياً بالسعرات، فقيراً بالقيمـة الغذائية اشتراه من السوق الحرة في المطار. وأخذ يترحم على الأيام التي كانوا يجوبون فيها المطار دون الحاجة إلى نزع أسلحتهم وعتادهم، وقال متذمراً وهو يخرج علب الكوكا كولا وقطع الشوكلاتة: «أما الآن فعليك أن تنزع كل أسلحتك لدخول السوق الحرة».

استمر غريز في محاولاته طرد الذباب العراقي محاولاً بكل جهده منع دخوله إلى علبة الكوكاكولا. ونصحه مياغي ثانية بأن يهدئ من رَوعه، غير أن ترنيمة «تباً! تباً! تباً!» كانت أساسـ بقية الحديـث؛ لأن تلك الحشرات كانت تحسن الانفلات مـن قبضته الساخطة. والذبـاب هنا هو كعناصر المقاومة، منتشر في كل مـكان، مثابر، وجزء من الحياة والموت - شيء إضافي آخر لجعل الأمور أكثر تعاسة وبؤساً في صندوق الرمال.

وصلـت الطائـرة أخيراً. ونزل ركاب الطائـرة، وكان جلّهم عراقيـين يلبسون ملابس أنيقـة، ويسحبـون خلفهم حقائب جديـدة ذات عجلات. وذهب العراقيـون مع السائقين

المحليين، في حين تهيأ أفراد الحرس الشخصي التابعين للشركات الأمنية الخاصة لاستقبال الأجانب الغربيين، ثم صحبوهم إلى سيارات غير مرخصة من طراز بي إم دبليو و جي إم سي. وجرى إعداد خوذات، ودروع، وبنادق رشاشة من نوع إم 4 مع مخازن إضافية من الذخيرة لأعضاء الفريق الجدد الذين سيحلون محل الفريق القديم الذي جاء لاستقبالهم. وتميّز اللقاء بكثرة الترحاب، والعناق، ومقارعة البراجم، والربت على الأكتاف. وتلقوا جميعهم تعليمات سريعة من مياغي وهم يستقلون العربات المصفحة. حمل الجميع أسلحتهم، وعُبّئت الذخيرة، وجُهّزت للاستعمال. وحان وقت الانطلاق، غير أن فريق المبة تأخر عمدًا. فعناصر المقاومة التي تراقب طريق المطار لديها ساعة من الوقت لتجهيز قواتها لتنفيذ هجوم على الطريق في أثناء عودتنا؛ لذلك سندع الجماعات الأخرى تنطلق أولاً لتتلقى الضربة المتوقعة على طريق العودة إلى المنطقة الخضراء. ويرى الفريق أن لبسي الدرع الواقية من الرصاص والخوذة وحملي آلة التصوير بدلاً من البندقية شيئاً مثيرًا للضحك. وذكّروني بأن المقاومة، لو سنحت لها الفرصة، لن تتوانى لحظة في قتل كل فرد داخل العربة، وكل عربة في القافلة.

انطلقنا من مبنى المطار في تمام الساعة 2:30 لنبدأ رحلتنا باتجاه الجنوب في الطريق الذي يلتف حول المطار إلى البوابة الرئيسة. فنحن هنا «خضر» أي «في أمان». وسنتحول إلى «الأحمر» بعد مغادرة آخر نقطة للتفتيش في المطار لندخل في منطقة الخطر.

وفي الساعة 2.35 لوّحنا بأيدينا تحية لجنود الغورخا النيباليين العاملين في الجيش البريطاني، الذين يتولون حراسة بوابة المطار، وأبرزنا لهم علامة الإمدادات العسكرية، وخرجنا من منطقة الأمان النسبي في المطار. وعلى مخرج طريق المطار، ظهرت أمامنا لوحة تذكرنا بأن «كل الأسلحة حمراء»، وتعني أن التحذير قائم وأن الأمان غير مضمون. لا مجال للمزاح، وأعلن مياغي عبر اللاسلكي، «ليأخذ كل فرد مكانه»، وأطلق السائقون العنان للعربات، فانطلقت عربات المبة عبر البوابات المفتوحة كأنها ثيران اندفعت من حظيرة سباق الرديو لرعاة البقر، وظهر في الأفق أمامنا امتداد فسيح لأشجار نخيل محترقة ومقزّمة، ضحية انفجارات سابقة، وتضيف اللوحة الكبيرة المتفائلة للانتخابات العراقية سخرية مروّعة على الخطر الذي يحيط باجتيازنا الوشيك لهذه المنطقة. وفي

الجانب المقابل هناك طريق فرعي رافد مزدحم على بعد 46 متراً تقريباً باتجاه موازٍ لنا، وفي المنطقة المتوسطة بيننا أرض بلاقع فيها هياكل سيارات بي إم دبليو متفحمة وآثار حرائق. ومع لحظة دخولنا منطقة الخطر، أصبحت المدخلات مركزة ومضغوطة؛ تتجلى الأحداث للعيان في حركة بطيئة، وتأخذ الأوامر المرسلة عبر جهاز اللاسلكي والردود القادمة منه صورة مختصرة. ونحن مانزال في حالة تسارع على الطريق، ولا توجد حركة للسيارات في الشارع الرئيس، «الطريق مُهَيَّأ».

الساعة الآن تمام 2:37، ونحن نوشك على الاقتراب من أول جسر أمامنا، ويسمى جسر «ج» أي «جهاد». بثَّ جهاز اللاسلكي العبارة الآتية: «تذكروا الموجز الذي صدر هذا الصباح. قالوا لنا: احذروا المتفجرات التي توضع تحت الجسور». أنعم الرجال النظر حولهم بحثاً عن القناصة، أو القذائف المتفجرة، أو العراقيين الذين يلقون القنابل اليدوية. «تمام!» ثم جاءت لحظة دخولنا الطريق السريع. حيث تتدفق السيارات ويزدحم السير على طريق المطار، وهي نقطة ساخنة سيئة السمعة، حيث يندس الذين يقومون بعمليات التفجير وسط الازدحام المروري ليفجروا أنفسهم.

صاح مياغي بالعربية: «امشِ!»، ملوحاً بقبضة يده خارج النافذة عدة مرات. تجاهل سائق السيارة إشاراته. فانطلق وابل من الرصاص من البندقية الرشاشة على الشارع بمحاذاة السيارة. وحين تجاوزنا سيارته، كان الرجل وأسرته ينظرون إلينا وقد أخذ الذهول والخوف منهم كل مأخذ. كانت رائحة البارود الحادة تروح وتجيء. وأمامنا الآن مخرج آخر وجسر آخر. أخرج جميع الواقفين في أبراج العربات المصفحة أسلحتهم وصوبوها تجاه الجسر في حركة متناغمة عجيبة كتناغم حركات راقصات الباليه: «كل شيء على ما يرام. الطريق سالك !».

ثم بث جهاز اللاسلكي ثانية: «السيارات تتباطأ أمامنا!»، وأصبحنا على مشارف جسر آخر: «أمّن الجسر!» فبرزت الأسلحة من أبراج العربات ووجهت نحو الجسر، ثم عدنا إلى حركة السير في تناغم كامل، وبدأت الحواجز البرتقالية تظهر في وسط الشارع. هل يحتمل وجود ألغام أرضية؟ أمعن المتعاقدون النظر في المكان بحثاً عن أشياء غير عادية. الساعة الآن 2:39. مزيد من السيارات متوجهة نحو الطريق السريع، لكن عربة الممبة

التـي في المؤخرة كانت تبقـي عليها بعيداً عن القافلة أو تجبرهـا على التوقف على جانب الطريـق. ثـم انبعثت نفحة من رائحة البارود. لا بـد أن يكون تي- بوي قد أطلق النار من رشاش بي كي إم مرة أخرى.

ثم صاح 86 عبر جهاز اللاسلكي «اللعنة! ما هذا؟». نظرنا إلى الأمام فرأينا مجموعة مـن النسـاء المتلفعات بالعبـاءات السوداء يقطعـن الطريق السريـع إلى الجهة الأخرى. صوبـت البنـادق جميعها إلى الأمـام. هلعت النسوة مـن مشهد ثلاث عربـات مصفحة ثقيلة بيضاء محملة بالرجال المدججين بالسلاح متجهة نحوهن، ففررن وهن مذعورات. إنـذار كاذب. هل كان كذلك حقاً؟ لقد دأبت المقاومة على استخدام حيل لإرباك القوافل الأمنية، وحملها على تخفيف سرعتها أو التوقف لمهاجمتها.

ثم صاح غيكو محذراً من السيارات القادمة كما يحذر الظهير الخلفي بقية اللاعبين في لعبة كرة القدم الأمريكية: «سيارات مسرعة قادمة باتجاهنا، دقق في الركاب. سيارة قادمة نحونا... أربعة أشخاص في سيارة أجرة». ثم استخدم تووِل مرآة السيارة لمعرفة إن كان هنـاك سيارات مسرعة قادمة من الخلف. وعبرنا نصب صدام حسين. الساعة الآن 2:40. دخلنا إلى منطقة الموت. تظهر الرسوم البيانية الملونة باللون الأخضر، والبرتقالي، والأحمر الصادرة عن أجهزة الاستخبارات أن أكثر أعمال القتل تحدث في هذه المنطقة. اختلفـت نبرة الصوت عبر أجهزة الاتصال اللاسلكي. «انتبه!» أمامنا مخرج آخر. كانت الرؤيـة محجوبة بالأشجار القصيرة المقزمة المتسخـة، وشعرت برصاصة تمر من جانب رأسـي. لا أثـر لوجود قناصـة في المنطقة. انصـب التركيز على الطريـق. لزمنا الجانب الأيمـن من الشارع الذي يوصلنا إلى البوابة رقم 12، ومنها إلى المنطقة الخضراء الآمنة نسبيـاً. وعلى يسارنـا، كانت النيران لا تزال تحترق في الهيكل الملتوي لسيارة مفخخة. لم يكن لدينا وقت للتوقف.

وشعرنا بضغط في الهواء تبعه صوت انفجار قوي سمع من الخلف، تبعه اندفاع موجة من دخان رمادي اللون إلى السماء على شكل نبتة الفطر معلنة عن إرسال عراقي آخر إلى جنة الله على متن سيارة يابانية رخيصة. لقد فاتتنا هذه السيارة المفخخة بخمس دقائق.

عـاد التركيز على الطريق الأمامي. سيـاج عال على جانبي الطريق. وظهر الارتباك على تي- بوي. كومة من القمامة غير ظاهرة المعالم على جانب الطريق. هل هي عبوة ناسفة؟ تابعنا المسير. إنها مخلفات انفجار وقع بالأمس.

الوقت الآن 2:41. «مرت من فوقنا الطائرات المروحية الصغيرة التي تشبه دمعة العين وهـي تطـير على ارتفاع منخفض جـداً في حركة متناغمة متتابعة كأنهـا تؤدي عرضاً في مهرجـان بهلواني جنـوني. وكان باستطاعتي رؤية الطيار ستيـف، ومعه اثنان من الرماة يحمـلان بنادقهما الآلية. إنهم ملائكة الحراسة التابعة لبلاك ووتر، انطلقوا لكي يوفروا حماية جوية لفريق الممبة دون أن يكلفهم أحد بذلك.

وصلنا إلى البوابة 12 المؤدية إلى المنطقة الخضراء، ولم ندخل بعد المنطقة الخضراء، فأمامنـا سائق سيارة داس على فرامل سيارته، وانطلقـت سيارة أخرى باتجاهنا. صاح غيكـو «انتبه! راقـب هؤلاء!» هل السائـق مرتبك؟ هل يلبس ثياباً بيضـاء؟ هل هو حليق؟ لا، بـل هـو سائق سيارة نقل بالأجـرة يحاول الالتفاف حول الأزمـة المرورية عند البوابة. ثـم خرجنا من فـوق جسر المخرج. الساعة الآن 2:42. بـدأت المباني السكنية تظهر على يميننا ويسارنا، ورأينا شباناً من قوات المارينز يجلسون على الحواجز الإسمنتية، فلوحوا بأيديهـم أن اعبروا. لسنا في أمان بعد. صاح جـوان بجنود المارينز قائلاً لهم: إنه شاهد عراقيين يحشون رزمة ما في أنبوب معدني قبل أن نصل بوقت قليل.

تقدمنـا عبر مسار الأولوية ثم توقفنا. تنفسنا الصعداء، ووضعت الأسلحة في وضعية الأمان، وها نحن الآن في المنطقة الخضراء. إنها الآن 2:43 وقد فرغنا للتو من السير على أخطـر طريق في العالم مـدة ثماني دقائق. وحين ذهب توول لتفقـد العربات، شاهد آثار إصابـة الزجاج الأمامي في عربة الممبة التي كنـا فيها بعيار ناري. لا داعي للقلق. فسوف يفعلون ذلك غداً مرة أخرى. يوم جديد. مهمة جديدة.